

البعد النهضوي في السرد القرآني

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾

(يوسف 111)

د. حلومة التجاني

لم تعرف أمة العرب في تاريخها نهضة كالتّي عرفتّها على يد الاسلام، فقد كانت أمة جهل وانحطاط، الأفضلية فيها للأقوى مالا وولدا؛ ليس لهم من مظاهر الثقافة إلّا الشّعْر يدونون فيه مآثرهم، يرفعون به قوما ويحطّون به آخرين، لكن السؤال المطروح هل كان العربي الجاهلي يعي فكرة النّهضة والأسس التي تقوم عليها؟ الأكيد لا، طالما كان أكثرهم يحقق مآربه وفق قوانين الغاب التي ابتدعها الفكر النفعي إذ شاع الربا وقتل الأنفس والبغاء وغيرها من الرذائل التي تحطّ من قيم المجتمع ومن قيمة الإنسان تحديدا، لكن الأكيد أيضا أن هذا المجتمع لم يعدم الباحثين عن الحقيقة كزيد بن عمرو بن نفيل الذي انطلق إلى الشام يبحث عن المعبود الحق، إنّها إرادة التّغيير التي تبدأ بها عملية النّهضة فلا يغيّر الله بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. وإذا فمبدأ النّهضة إرادة التّغيير ومنه إلى الأسس التي تعمل على نهضتنا من كبوتنا هذه، وهي أسس كثيرة أهمها النّهضة بالروح والنفس والتعالّي بهما عن الرذائل والاقتراب من الفضائل وهي أوّل الأشياء التي اهتمت بها عقيدة الاسلام، لكننا سنركّز منها على الإنسان والعلم والعمل.

لا شكّ أنّ أوّل نهضة عرفها العرب هي نهضة الاسلام إذ تحوّلت من أمة جهل إلى أمة علم يشهد على ذلك كمّ الإنجازات العلمية في المجالات كلّها، وكان من بين ما حقّقه الإسلام النّهضة باللّغة العربية وخطّها إذ صارت لغة الدّين لا لغة العرق، يتحدث ويكتب بها العربيّ وغير العربيّ، أمّا الخطّ فقد أصبح ميدان فنّ يتبارى فيه الفنّانون كتابة ونقشا، فليس أروع من الخطّ العربيّ جمالا إذ تتعانق حروفه الموصولة ببعضها البعض تقف شاهدا على عظمة هذه الحضارة.

ولن نسهب في الحديث عمّا أنجزه الاسلام من نهضة في شتى الميادين، بل سنقف عند الكتاب الأوّل في الثّقافة العربية الاسلامية وهو القرآن محاولين استكناه أسس النّهضة وأبعادها في شقّه السرديّ إذ القصة وسيلة تربوية فعالة تمكّن العرب والأمة الإسلامية على حدّ سواء من الإصلاح والنّهوض من الكبوة والغفلة ذلك أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم يقول: تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما كتاب الله وسنة نبيّه¹.

وعليه فإن نهضة المسلمين مرتبطة بالعودة إلى تعاليم الاسلام لأن سننه سنن الخالق عز وجل، ولن نتمكن من ذلك إلا بإعادة قراءة القرآن كما يتوجب أن نقرأه، فالإسلام يحث على التدبّر الحق، ذلك الذي لا يبني الروح فحسب وإنما يدعو إلى النهضة بالعقل والسلوك أيضا " فلم يبق الدين مجرد تعبد أعزل بل هو جهاد فعلي في التاريخ الجاري، حقيقة في الوجود الدنيوي الإنساني².

يلاحظ الذي يقرأ القرآن أن الجانب السردي يشغل حيّزا ليس بالهين، فقد وظّف القرآن القصة لصالح دعوة التوحيد فصبّ اهتمامه على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وقومه الكفرة ولم يحتف بالمكان والزمان إلا فيما يجب أن يذكر، فالقصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه كما هي الحال في القصص الفني، إنما القصة فيه من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع³، وكثيرا ما كان هدف هذا القصص شدّ أزر الرسول صلى الله عليه وسلم بإحالاته على سيرة سابقة⁴. لكن القصص القرآني ممتد في الزمان وفيه من العبر الكثير وكما نهض بأمة الأمم بإمكاننا اليوم الاعتماد عليه للنهوض بأمّتنا وذلك بقراءته بنظرة جديدة كما أسلفنا، ولنبدأ بـ القابلية للتغيير

— **القابلية للتغيير:** غير الإسلام أشياء كثيرة في حياة العرب وجعل القرآن دستور هذا التغيير فبتعاليمه الجديدة عرف العرب أنّ المعبود إله واحد هو القادر على كل شيء وأنّ الحياة التي كانوا يعيشونها إنما هي حياة عبثية لا خير فيها وضرب لذلك قصصا وأمثالا كثيرة ذلك أن أغلب ما جاء من قصص في القرآن الكريم يستند إلى قيمة التغيير في حياة الفرد والمجتمعات، وقد كان الرّسل - القادة الأوائل - حاملين رسالة التغيير هذه دافعين ضريبة غالية من أجل تحقيق مثل هذه النهضة، فالمتمتع في قصة إبراهيم عليه السلام باستطاعته أن يرى ضرورة التغيير التي جعلت إبراهيم عليه السلام يقف في مواجهة سلطات ثلاث هي أولا سلطة الأب المنحرف عن عقيدة التوحيد يدعوه إبراهيم بكل رحمة ولين في قوله تعالى:

﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾⁵.

وهي مهمة صعبة مقارنة بدعوة الأب لابنه؛ مثل هذه الدعوة الرّحيمة تجعلنا نفكر في أن بوادر النهضة في أمّتنا تبدأ أولا في المحيط الأسري وفي البيت أولا سواء وجدنا استعدادا لتقبّل هذا التغيير أم لم نجد، لكنها محاولة واجبة لا بدّ أن تُؤتي ثمارها يوما بدل تجاهل المسؤوليات المنوطة بولي الأسرة، الخلية الأولى في المجتمع؛ فإذا تمّ لنا ذلك بإمكاننا أن ننقل إلى مستوى آخر أوسع رحابا وأصعب دعوة ذلك هو مستوى الأقارب والجيران والأصدقاء

والشارع عموما وهو ما يقابل سلطة المجتمع التي كان في مواجهتها إبراهيم عليه السلام، فكأي دعوة تبدأ صغيرة في كنف البيت فإنها سرعان ما تحاول خرق الحيز الفضائي الضيق إلى فضاء أوسع؛ وهذا الخروج إلى فضاء أوسع يستدعي كفاءات أقوى من تلك التي تستخدم في فضاء ضيق، لذلك وجدنا لهجة إبراهيم تتغير إلى لهجة متهمكة ساخرة، يقول: «... مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ»⁶، وفي آية أخرى يقول بلهجة حادة: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»⁷، ولم يتوقف إبراهيم عند سلطة المجتمع وإنما تجاوزها إلى السلطة السياسية فواجه النمرود وأبطل حجته.

الأكيد أننا لسنا في عصر التماثيل ولا في عصر النمرود ولسنا بحاجة إلى دعوة إلى توحيد الله إذ نحن من المؤمنين الموحدين، لكن الأكد أيضا أن هناك معادلات موضوعية لما استكره إبراهيم عليه السلام على قومه والتي لا يقبلها ديننا ويدعو إلى محاربتها لكننا لا نفعل شيئا اتجاهها إما تجاهلا وإما لقناعة راسخة بعدم القدرة على التغيير، ففهم المسلمين اليوم لمنهج القرآن ليس على حدّ سواء وأغلبهم لا يفهم تعاليم الاسلام على أصالتها ووضوحها " وأحيانا يكون فهمهم لها على عكس حقيقتها، فمن هنا تظهر الحاجة إلى تغيير ما بأنفس المسلمين عن الإسلام في قليل أو كثير ولا سيما بعد هذا الرّكود الطويل الذي جعل كثيرا من الخرافات والنظرات الخاطئة تحمل قوة قداسة الاسلام والقرآن عند المسلمين"⁸.

وعليه فالإسلام يدعونا إلى التغيير الإيجابي صراحة كقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁹، أو كقوله عزّ وجلّ: «... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدٍّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ»¹⁰، كما يدعونا إلى ذلك تضمينا في قصص الأنبياء الذين يدعون إلى التغيير الجذري لكل ما هو فاسد من معتقدات أو معاملات، وعلينا نحن أن نقف بالأنبياء عليهم السلام كل وفق الكفاءات التي استودعها الله فيه فنغير ما أمكن التغيير.

— **النّهضة بالإنسان:** عندما ننظر إلى الإنسان العربي — والمسلم على العموم — في واقعنا المرير نلمس إلى أي مدى انحطت قيمته وأدركنا أنه لا يساوي حتى النعل الذي يلبس، والمأساة فعلا أنه لا يعي هذه الحقيقة المرة، فالمعوقات كثيرة تجعله يعيش قيد حاجاته البيولوجية لا يحيا الحياة التي تليق بمن فضل الله على سائر مخلوقاته مثل ذلك أن ترى تنافس بعضهم للنيل من قطعة خبز عُرِضت على أوساخ الشارع قبل أن تصل إلى يديه ولو أنه التفت إلى تاريخه المجيد ينظر فيه لأدرك أنه تهاوى بعيدا في الدركات السفلى وأصبح إنسانا مسلوب الحضارة " لم يعد قابلا لإنجاز عمل محضر *Euvre civilisatrice* إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية"⁶، ذلك أن الإنسان هو أساس النّهضة؛ والنّهضة بكرامته من الأولويات إذ هي

الأصل في خلقه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾¹¹.

لقد أولى الاسلام كبير الاهتمام للإنسان طفلا وشيئا ورجلا وامرأة وحيًا وميتا وليس أدل على كرامة الإنسان عند ربّه كقصّة آدم عليه السّلام ولنا أن نقرأ في قصّة الخلق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾¹²، ففيه السّجود هذه هي هيئة الإكبار والتّعظيم لهذا المخلوق الذي يصرح إبليس بكرامته قائلا: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُؤْخِرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹³، وعليه لابدّ للإنسان اليوم في واقعنا العربي أن يُرسّخ هذه الحقيقة في ذهنه، لا أن تكون مجرد معرفة تجول بخاطره وأن يأبى أنواع المهانة بأشكالها مهما قلت لأنّه خلق مكرّما مفضّلا على سائر الكائنات، وإذا ما نظرنا في القصص القرآني لوجدنا أنّه قصّة الإنسان، من بداية خلقه إلى يوم بعثه تعترى تاريخه كبوات بعد نهضات ونهضات بعد كبوات وفي كل أمة هناك قائد للنّهضة والإصلاح فقصة آدم هي قصّة البدء التي تجعل من الإنسان خليفة الله على أرضه وهو شرف كبير يناله الإنسان، وخلافة آدم لا تخصه فحسب وإنما تخص بنيّه أيضا من الرّسل وغيرهم لقوله تعالى مخاطبا داود عليه السّلام ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص 26) أو كقوله عز و جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹⁴ ولقد عرفّ ابن خلدون الخلافة فقال " الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النّظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الرّاجعة إليها، إذ أحوال الدّنيا ترجع كلّها عند الشّارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا "¹⁵، والإنسان هو الإمام أيضا كما تحدثنا عنه قصة إبراهيم عليه السّلام: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾¹⁶، والإمام العادل وحده القادر على نهضة أمته إذ تستدعي منه الكمال في الأوصاف والأحوال على حدّ قول ابن خلدون¹⁷ وهي مهمة أولى الأمر النّهوض بمقتضيات الشعوب التي أوكلوا بالإشراف على مصالحها.

ومما يلفت النّظر إليه في السّرد القرآني اهتمامه بالتركيز على إنسان الحضارات السّابقة وهو في كلّ هذا يشير إلى أسباب انحطاط هذه الأمم ومحاولة الأنبياء الإصلاح ابتداء من المبدأ وهو عقيدة التّوحيد وانتهاء بالأخلاق والمعاملات التي تنهض بالشّعوب حاثا على النّظر في عاقبة الأمم السّابقة إذ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»¹⁸، فمن مظاهر النهضة التي هي أساس الحضارة، قوة الأمة وهي "مجموع ما به تدفع العوادي عن كيانها وتستبقي صلاح أحوالها من عدد حربية وأموال...¹⁹ يضاف إليها إثارة الأرض "تمثيلاً لحال شدة تصرفهم في الأرض و تغلبهم على من سواهم بحال من يثير ساكنها ويهيجها"²⁰ وهو قمة التغيير الذي كان يفترض به السير نحو الإيجابي لا السلبي فيها هو هود عليه السلام يضع يديه على سبب انهيار تلك الحضارات حين يخاطب قومه أصحاب مدينة إرم التي يصف الله أنه لم يخلق مثلها في البلاد، بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيِّنَ * وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴾²¹ فبيد الإنسان إذا أسباب انحطاط أمته و بيده أيضا مقاليد نهضتها متى كان التغيير إيجابيا.

— **النّهضة بالعلم:** من مقومات النهضة التي لا يماري فيها أحد العلم، إذ هو الأداة التي تُصنع بها حضارة الأمم و التي بها تُقاد النواصي، وقد بجل القرآن حامله وأثنى عليهم فقال: ﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾²²، بل جعل القرآن العلم قرين الإنسان في قصة الخلق فيه اكتسب بنو آدم أحقية التمجيد على سائر المخلوقات حين سأل الملائكة سؤالهم الاستعلامي: ﴿...قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾²³ ثم تأتي الآيات بعدها لتبين مكانة العلم من الخلق إذ له الدرجة الثانية بدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ... ﴾²⁴ فلو لا هذا العلم لما استحق الإنسان خلافة الأرض.

لكن أمتنا تفتقر إليه على الرغم من بذلها الجهود لكسبه ذلك أنه علم بلا عمل ناهيك عن أسباب أخرى كأخذ نتائج الغير وتطبيقها على منظوماتنا التعليمية دون النظر في خصوصية المشاكل التي نتخبط فيها وأخرى تتعلق بالسلوكات الأخلاقية للأفراد كأن يُكَلَّفَ به أناس لا تتوفر فيهم شروط طالب العلم.

ولقد اهتم القرآن بهذا الموضوع فأولاه الاهتمام الكبير كما أسلفنا، فإلى الجانب الخطابي فيه والصريح كان للقصة القرآنية أسلوبها في الدعوة إليه وفي كيفية طلبه والحرص على احترام أصحابه جاعلة الأنبياء والرسل القدوة التي يجب أن يحتذى بها حتى يتمكن من بناء مجتمع صالح قادر على حل مشاكله، فوضّحت الأخلاق التي يجب أن يكون عليها العالم و السلوك الذي ينبغي على المتعلم أن يتحلى به، وهي من الأسس التي ينهض عليها العلم النافع، ولنضرب لذلك مثلا قصة موسى عليه السلام إذ يقول تعالى في شأن موسى عليه السلام ومرافقه: ﴿فَوَجَدَا

عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٥﴾ ، فالآيات لو أمعنا النظر تحت أولا على العلم النافع الذي يأتي بثمره يانعة طيبة ﴿... هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا...﴾ فالعلوم كثيرة بعضها مفيد وبعضها لا يفيد ولا يضر وبعضها الآخر ضار لا ينفع، وتُعرف فوائدها من مضارها من الآثار المترتبة عليها، ففي تأكيد موسى عليه السلام على العلم الموصوف بالرشد إشارة إلى أن الأمم لا تصلح ولا تنهض إلا بالعلم النافع، وتلك من أهم شروط طلب العلم وهذا لا يعني أن تقتصر على طلب العلوم الشرعية فحسب فالآية ذاتها لا تحدد نوع العلم المطلوب، فكل علم من شأنه أن يخدم الأمة ويسهم في تقدمها ورخائها علم واجب الطلب.

ومن هنا نجد حرص القرآن في شقه السردى على النهضة بالعقل والعمل على سلامته ورجاحته فما من رسول أو نبي إلا وأشار إلى هذه النقطة. ولا تتأتى هذه النهضة إلا بترويض العقل بالتفكير والنظر فيما خلق الله والاحتكام إلى المحاجة والبرهان التي هي من صنائع العقل ومن الرشيد أن يعمل الإنسان بموجب العقل²⁶، ومن النماذج التي تمثل الارتقاء بالعقل قصة إبراهيم عليه السلام حيث الحجّة بالعقل على سذاجة قومه وملكهم النمرود، فقد جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مواجهها قومه بالحجة بعد تحطيمه أصنامهم قوله: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾²⁷، وفي أخرى نقرأ الحوار بينه وبين النمرود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾²⁸، أليس من شأن حوارات إبراهيم عليه السلام أن تعلمنا كيف نستخدم العقل من أجل إثبات قضية ما بشرط صحتها وصدقها إذ تبيّن حواراته كذب قضية محاوريه وعدم صحتها فحجتهم واهية إزاء حجته، وعليه فإن النهضة بالعلم لا تتم إلا بنهضة العقل الراشد.

— **النّهضة بالعمل** : العمل من أسباب قوّة الأمم وازدهارها، ومن المراتة حقاً أن نعترف بانحطاط قيمة العمل في مجتمعاتنا العربية، إذ بات واجبا غير مرغوب فيه؛ الإلتقان فيه معدوم على الرغم من معرفة قيمة العمل في الاسلام، فالممتنع للخطاب القرآني بما فيه القصص بإمكانه أن يلمس هذا الحرص الشديد على أدائه بشرط صلاحه ذلك أن العمل قد يكون مضراً هداماً لا نفع فيه.

ولنا أن نكتشف تلك العلاقة الوطيدة بين قصص القرآن ومعاني الصلاح والنهضة في العمل كعلامة على الرفعة والأمان والنجاة والقوّة. ففي قصة إبراهيم عليه السلام نقرأ قوله

تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾²⁹ فإبراهيم عليه السلام يبني البيت على الرغم من كبر سنه وابنه إسماعيل يعينه على الرغم من صغر سنه وكلاهما منهما في عمله يستعين بالدعاء.

لقد استعمل القرآن للتعبير عن العمل هنا لفظ الرِّقْع وفيه من معاني النهوض الكثير، منها البناء الذي هو عكس الهدم، فإذا جئنا إلى قصة موسى وجدناه يعمل أجيرا طلبا للأمن والاستقرار إذ يقول تعالى في محكم آياته: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾³⁰، وإذا نفهم من النص السابق أن من أهداف العمل استقرار الأمة وأمنها الشيء الذي لا نلمسه في مجتمعاتنا العربية، أما مفهوم النجاة فيجسده صنع نوح عليه السلام للسفينة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَكُلَّ تَخَاطُبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾³¹، فقد كان من قدرته سبحانه وتعالى أن ينجي المؤمنين من قوم نوح بأي طريقة كانت لكنه قدر أن تكون على يدي نوح عليه السلام ومن خلال عمل النجارة، كي يتعلم الإنسان أن حياته ونهضة أمته مرهون بعمل صالح يتقنه يكون مصدر قوته ومنه إلى قوة المجتمع .

ونخلص في الأخير و في عجالة أن ما يؤطر كنه هذا القصص وروحه، أخلاق الأنبياء وسلوكهم إزاء أقوامهم ما يؤكد شمولية هذا الدين الذي ينبع من مشكاة واحدة، وأعتقد اعتقادا جازما أن أمتنا لن تحقق نهضاتها في مختلف الميادين إلاّ بنهضة الأخلاق أولا، فالأخلاق الحميدة كالعدل والصدق والإخلاص والتفاني في كل ما هو جميل ومفيد من شأنه أن يُعلي شأن هذه الأمة، فلقد استطاع العرب المسلمون الأوائل أن يبنوا حضارة يشهد لها التاريخ عبر أخلاقهم، فعرابي الأمس كان نظيفا في ملبسه ومكانه أما عربي اليوم فلا يهتم أن يكون قضاؤه نظيفا ولا يبالى بالنزاهة في جميع شؤونه وأشياء كثيرة لا يعيرها اهتمامه لأنها صارت في نظره مثاليات لا تشبع ولا تغني من جوع، لذلك وجب أن نهتم بهذا الجانب و نوليهِ عناية كبيرة.

— الهوامش:

1. مالك بن أنس: الموطأ، تحقيق أبو أسامة سليم بن عبد الهاللي، مجموعة الفرقان التجارية، 2003 م، المجلد 4، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، ص 281
2. شروط نهضة العرب والمسلمين : أبو يعرب المرزوقي، دار الفكر/ سورية 2001 ص 101
3. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، ط 1، 1973، ص 215
4. تهامي العبدولي: النبي إبراهيم في الثقافة العربية الإسلامية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، - سوريا ، ط 1 ، 2001 ، ص 102
5. سورة مريم الآيتين: 41-45.
6. سورة الأنبياء، الآية 52.
7. سورة العنكبوت، الآية 17.
8. جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي، ط 8، 1989 ص 36
9. سورة الأنفال، الآية 53.
10. سورة الرعد، الآية 11.
11. سورة الإسراء، الآية 70.
12. سورة البقرة، الآية 34.
13. سورة الإسراء الآية 62.
14. سورة الأنعام الآية 165.
15. مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق - سورية، 1986، ص 70
16. سورة البقرة الآية 124.
17. عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الفصل التاسع والعشرون، دار القلم، بيروت - لبنان، ط 7، 1989 م، الفصل 25 ص 191
18. سورة الروم الآية 9.
19. نفسه ص 191
20. محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، المجلد العاشر، الجزء الحادي والعشرون، ص 57
21. سورة الشعراء، الآيات: 128-134.
22. سورة الزمر الآية 9.
23. سورة البقرة الآية 30.
24. سورة البقرة، الآيات: 31-33.
25. سورة الكهف، الآيات: 65-70.
26. نفسه ص 57

27. سورة الأنبياء الآيات: 62-64.
28. سورة البقرة، الآية 258.
29. سورة البقرة الآية 127.
30. سورة القصص، الآيتين 27-28.
31. سورة هود، الآية 37-38.